خصيم مبين ودنيا بأنه أن خلقه من تراب الآية فانظر إلى آثار رحمة الله كيف نقله من تلك
الذلة والقلة والقذارة لهذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد
الموت وناطقا بعد الخرس وبصيرا بعد العمى وغنيا بعد الفقر وقادرا بعد العجز وقويا
بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهتديا بعد الضلال وكان في ذاته لا شيء وأي شيء
أخس من لا شيء وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئا وإنما خلقه من تراب
ذليل ونطفة قذرة ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وإنما أكمل النعمة عليه
ليعرفه بتلك ربه ويعلم به عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبر إلا به ولذلك امتن عليه
فقال ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين الآية وعرفه خسته أولا فقال ألم يك
نطفة من مني يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته فقال فخلق فسوى فجعل منه الزوجين
الذكر والأنثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده بالاختراع ابتداء فمن كان
هذا بدؤه وهذه حالته فمن أين له البطر والكبر والفخر وهو على الحقيقة أخس الأخساء وأضعف
الضعفاء ولو أكمله وفوض أمره إليه وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى
المبدأ والمنتهى لكن سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة
والآفات المختلفة والطبائع المتضادة من البلغم والمرة والريح والدم ويهدم البعض
من أجزائه البعض رضي أم سخط شاء أم أبى فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها
ويموت كرها لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا خيرا ولا شرا يريد أن يعلم الشيء فيجهله
وأن يذكره فينساه ويريد أن يغفل عن الشيء فلا يقدر ويريد أن يصرف قلبه إلى ما
يهمه فيجول في أودية الأفكار فلا يملك نفسه ولا قلبه يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه
فيه ويكره الشيء وتكون حياته فيه يستلذ الأطعمة وتضره ويأنف الأدوية وهي
تنفعه لا يأمن أن يسلب في لحظة سمعه وبصره وعلمه وقدرته أو يختلس عقله ثم
يختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو مضطر ذليل إن ترك بقي وإن
اختطف فني فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط
أحواله فليتأمله وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ثم أماته فأقبره

٤٩

معناه أنه تسلب روحه وحواسه وإدراكه وعلمه وقدرته فيعود جمادا كما كان أول مرة
لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس ولا حركة فيه ثم يوضع في التراب فيصير جيفة
منتنة كما كان نطفة قذرة ثم تتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه فيصير رميما رفاتا ويأكل
الدود أجزاءه ويصير روثا في أجواف الديدان ويصير جيفة يهرب منه الحيوان و ويستقذره
كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان فأحسن حاله أن يعود كما كان فيصير ترابا يعمر
به البنيان أو يعمل منه الكيزان وما أحسنه لو ترك ترابا بل يحييه بعد طول البلى
ليقاسي شدائد البلاء فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة وأرض مبدلة وجبال مسيرة
ونجوم منكدرة وشمس منكسفة مكورة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجحيم
تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
حسيبا فيقول وما هو فيقال قد كان وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتفتخر بأسبابها بها
ملكان رقيبان عليك يكتبان ما تنطق به وتعمله من صغيرة وكبيرة وقد نسيت
ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب
فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر صحيفته ويشاهد ما فيها من مخازيه
فإذا شاهدها قال يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فهذا
آخر أمره وهو معنى قوله ثم إذا شاء أنشره فمن هذه حالته وللتكبر بل ما له وللفرح
فضلا عن التبختر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر له آخره ربما اختار والعياذ
بالله أن يكون كلبا أو خنزيرا فيصير مع البهائم ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا
ويلقى عذابا وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأرفع إذ أوله تراب
وآخره تراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب لا يهرب منه الخلق ولو رأوا
العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريحه لماتوا
من نتنه فمن هذا حاله في العاقبة كيف يتكبر ويرى نفسه شيئا حتى يعتقد لها فضلا
وأي عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو عنه مولاه أرأيت
من جنى على ملك جناية فاستحق بها ألف سوط فحبس وهو ينتظر أن يخرج ويضرب

Copyright © King Saud University